

ميزان الإسلام*

لفضيلة الشيخ صالح بن عبدالله بن حميد

خطيب الحرم المكي

أيها الناس ! من هنا ، من بيت الله الحرام من البقاع المقدسة ، بلاد الأمن والإيمان ، والسلام والإسلام ، حيث نزل الوحي على نبينا محمد ﷺ ، من بلاد الحرمين الشريفين حيث انطلقت مبادئ حقوق الإنسان ، قبل أن يعرف عالم اليوم حقوق الإنسان ، بل انطلقت مع حقوق الإنسان حقوق الشجر والحيوان .

ندعوكم دعوة إلى ديننا فهو إيمان وعمل ، وعلم وأمان ، ندعوكم للقراءة المنصفة ، والاطلاع المتجرد لتروا ﴿ إنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ .

ندعوكم لنظر عادل ﴿ يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾ .

أيها القادة ! أصحاب القرار ! أيها الناس ! دعوة مخلصة وأنتم ترون الصراع في هذا العالم يتفاقم ، والاستغلال يتعاظم ، والمطامع لا حدود لها ، والموازن لا ضابط لها . دعوة صادقة ، والبصير يرى أن من بيده القرار ، ورعاية الحقوق يسلك التعسف بالقوة ، ومدّ الذراع القوية لتتال كل من لا يوافق على المشروعات المطروحة .

إن هذا مسلك خاطئ ، وظن جائر ، فالتعسف في استعمال القوة لن يجلب سلاماً ، ولن يسكت مظلوماً ،

من الحرم الحرام ، والبلد الحرام وفي الشهر الحرام ، من مواقع الصلح وحقن الدماء ، ومواطن التضحية والفداء ، من بلاد العفو والتسامح حيث أطلق نبينا محمد ﷺ ، حيث أطلق الطلقاء في هذا البلد الطاهر ، ومن أجل كل هذه المعاني ، هذه دعوة لسكان العالم جميعاً ، ندعوهم بدعوة قرآننا ، وبنداء كتاب ربنا ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، أن لا نعبد إلا الله . ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ .

إن قادة العالم يحدثوننا عن نظام يحفظ للعالم أمنه واستقراره ، وخيره وخيراته ، ويمنوننا بعالم سلم وسلام ، تجتنب فيه ويلات الحروب والصراعات ، هذه الحروب الشمطاء ، والصراعات الكريهة التي لا ينتصر فيها غالب ، ولا يستسلم فيها مغلوب ، يبشروننا بعالم يحفه السلام ويسوده الحب والصفاء والوئام .

* خطبة الجمعة في المسجد الحرام في موسم الحج عام ١٤١٦ هـ .

والليالي حُبالي مشحونة بالغضب والرفض والإباء . إنها حُبالي غضب مكتوم ، وقهر محبوس . « عناقيد غضب » يصبها المعتدون ، وحقيقتها بذور حقدٍ لا تنبت إلا حقداً ، ولا تزرع إلا نقماً وانتقاماً .

غزو واجتياح ، وتعديات ومظالم لا تدفع إلا إلى الإحباط ، وفقدان الثقة بالمجتمع الدولي كله ؛ بنظمه ومنظماته .

فأي عاقل متجرد يشاهد المناظر الدامية ثم يرى أصحاب القرار وهو يدافعون عن المعتدي ، ويتمسسون المسوغات لتصرفاته ، ويحرمون أصحاب الحق من المقاومة ودحر العدوان .

دعوة صادقة للنظر في مفهوم الأمن الذي يسعى إليه الجميع ، والسلام الذي يحبه الجميع ، ويؤمن به الجميع ، ويدعو إليه الجميع . هل هو ياترى أمن طرف واحد ، وسلام شعب واحد؟! وهل هو حق لجهة دون أخرى؟ أي سلام لا يكون الحديث فيه إلا عن التفوق العسكري لطرف على حساب آخر؟ أي سلام يلتزم فيه القائم على رعاية السلام بتأمين التفوق لطرف على آخر؟ هل هو سلام بمواصفات خاصة؟ وشروط خاصة؟ أهو سلام الغلبة والتسلط والتهديد ضد كل من لا يرضى بهذا النوع من السلام؟ سلام يهدم البيوت ، ويشرد من الديار ، ويحاصر الشعوب . ويعتقل المئات ، ويجعل رد الظلم من طرف إرهابياً ، ومن طرف آخر حقاً مشروعاً!!

سلام تكون فيه الدماء رخيصة ، والحقوق مهددة ، والأرض مستباحة ، والبيوت غير محترمة ، سلام يتخذ العقوبات الجماعية منهجاً ، سلام ينتقص السيادة ، ويلغي الكرامة ، ويهين العزة . أي سلام تحول فيه المنطقة

ولكنه تفجير لمخزون من الحقد لا يقتصر على منظمة ، أو حزب أو هيئة أو جهة ، بل سينال كرامة الإنسان ، كرامة العربي ، بل كرامة المسلم ، بل الكرامة كلها ، وعزة أهل الإسلام في كل الأرجاء .

دعوة من منطلق ديننا الحق ، ومن بدهييات العقل ومسلماته ، فمن حق المظلوم ، أن يدافع عن نفسه إذا سدت أمامه محاولات استعادة الحقوق ، لا يلزم مظلوم إذا شك في نوايا خصمه إذا كان الوسيط غير منصف . لماذا يصلون به إلى نقطة اليأس فيتساوى عنده الموت والحياة؟! وحينئذ لا يبقى عند هذا المسكين شيء يخشى فقدانه . مشاهد مرعبة ، من الدماء والأشلاء ، والتشريد والتقتيل يستحيل أن تمحوها الأيام ، بل إنه ليشب عليها الولدان ، وترضعها الأمهات مع الألبان .

إرهاب عسكري وسياسي ، واقتصادي يجري تنفيذه ، ويجري التخطيط لآخر مثله .

دعوة مشرقة

إنها دعوة مشرقة ، وأنتم تكافحون الإرهاب وتستنكرون العنف ، وتدعون إلى السلم والسلام ، دعوة إلى مشاهدة استئصال الأطفال والنساء ، وهم في الملاجئ الآمنة ، وملاذات الحماية الدولية .

في رحم هذه المآسي تتولد كل ألوان العنف والسخط وتفجير الأنفس ، منها وفيها تنبت تنظيمات انتقامية التوجه ، ومجموعات عدوانية النزعة .

كيف تستبعدون أن يتولد من ركان الجثث إرهابيون؟! ولماذا لا يخرج من بين أنقاض البيوت متطرفون؟! معاناة وتسخط ، وجور وتعسف ، والقسوة لا يقابلها إلا قسوة حرب الحجارة وتفجير الأجساد وانتفاضة الأطفال ،

إلى منجم عمالة رخيصة ، وإلى سوق استهلاكية مسلوقة
الإرادة ، سلام المراوغة واقتناص المكاسب الاقتصادية ،
سلام يسفر عنصرية وفقراً ، وجوراً منظماً ، سلام من
طرف لا يرضيه سوى فناء الآخر ، وهدم اقتصاده ،
وتقطيع أوصاله .

إنهم يبنون سلاماً على أعواد من القصب ، تهتز
وتساقط كلما لعبت بها رياح الغضب . إنها دعوة إلى
توضيح مفهوم السلام . وثمة دعوة أخرى مرتبطة بها
وقريبتها ، إنها دعوة لأن تقيموا الوزن بالقسط
ولا تخسروا الميزان .

أين ميزان الحق إذا كان عدوان المعتدي دفاعاً عن
النفس ، وحفظاً على أمنه وأمن شعبه ؟ ومقاومة
الشعوب للظلم والاحتلال إرهاباً وعدواناً وتهديداً لأمن
الآخر وشعبه . كيف ينقطع الظلم ، ومتى يتوقف
العدوان إذا كان حقد العدو غضباً مشروعاً ، وغضب
المظلوم إرهاباً ممنوعاً ؟ !

يغضب العالم حينما تطلق رصاصة ، أو تلقى قذيفة
على محتل ، ويتداعى العالم بصغاره وكباره إلى مؤتمر
عالمي للتنسيق من أجل صنع السلام ، ومكافحة الإرهاب
والتطرف .

أما مجزرة قانا ، والمجازر قبلها فتجري على سمع
العالم وبصره ، ولا أحد من ذوي القرار يدين ، ولا يدعو
لمؤتمر يزجرها ، فبأي ميزان أجيّزت مجزرة « قانا » ؟ !
وبأي قانون استبيحت دماء أهل « قانا » ؟ !

وبأي دستور يمنع أهل « قانا » ومن حول « قانا » من
مقاومة الاحتلال ؟ !

ماحدث في « قانا » لم تغد فيه المناوشات ، ولم توقفه
الالتماسات ، ولم تقلل من آثاره التأسفات ، أربعون

ألف قذيفة ، وأكثر من ستمائة غارة في حرب شرسة ،
وعناقيد حقد من أجل كسب أصوات انتخابية ، يكسبون
من أصوات بقدر ما يقدمون من جثث وأشلاء ،
يسترضون الناخب بنشر المآسي ، بكثرة الدماء ، بل بدماء
الأبرياء !!

ميزان هذا العالم المنحصر يغرق في المساعدات لطرف
بلا حدود ، وفي طريق آخر إغماط وإجحاف وتجاهل بلا
حدود . ازدواجية مقبولة ، ومظالم سافرة في توجهاتهم
السياسية ، ومسالكتهم الأخلاقية ، ومصطلحاتهم
الإنسانية .

عدل وإنصاف

ميزان : كفة القتال منهم تمتلئ بالأعداء !! وكفة
القتال من غيرهم إرهابي يهدم بيته ، ويُشرد أهلَه ،
وتُحاصر بلدته !! ناهيك بميزان الضغط والتعاطف ،
فالضغط منصب على الضعفاء . والتعاطف يمنح للمعتدين
أين مجلس الأمن ، وهيئة الأمم من شكوى الشاكين وأين
المتهمين ؟ ! ماذا يقول الضمير العالمي ، وأين هي المقاطعة
الاقتصادية على كل من ظلم ، وامتنع من تطبيق
القرارات ؟ ! بإقادة العالم ويا أصحاب الرأي !

إن مواجهة التطرف تتطلب تعاملاً بعدل وإنصاف ،
وتجاهل العدل ، والسكوت على الظلم يولّد المزيد من
التوتر والعنف والحروب ورغم الهدوء الظاهر الممتلئ
باليأس والغبن .

إن التحدي الحقيقي في البطالة والفقر والتجويع
وفقدان الأمل .

إن سياسات الحرمان والتجويع ، والعزل والخنق ،
والقهر والاستغلال الممتدة على مر السنين هي التي تغذي
التطرف ، وحب الانتقام ، وسلوك مسلك الإرهاب .

نعم للسلام وليس للاستسلام

الجزع لا يغني من التدر ، والصبر من أبواب الظفر ،
والمنية ولا الدنية ، واستقبال الموت خير من استدباره ،
وهالك معذور خير من ناج فرور ، والأيام حبلى والتاريخ
له ألف عودة وعودة طالما هناك خصوم لا يتعظون ، ولعبر
التاريخ لا يدركون . ومن سنن الله المعلومة أن الدهر طال
أو قصر سوف يحاسب الذين يستهترون بالدماء ،
ويهينون القضايا ، إنهم يسهمون في إحياء تيارات الرفض
وغائها .

لقد قال قومنا : نعم ، للسلام ، ولم يقولوا : نعم ،
للاستسلام والتنكيل والمهانة والانتقام وإذا استرخى
العدو الدماء فهي عند أهلها غير رخيصة . ولقد علم
قومنا كما يعلم غيرهم أن الأمة التي تقبل الخنوع والذلة ،
وتعطي من نفسها الدنية أمة ماتت فيها المواهب الإنسانية
العليا ، وارتكست فيها الملكات اليقظة . أي حياة تعيشها
إذا هي عاشت خادمة تابعة ، ذليلة مهانة ، كل أمة تنكص
عن حمل أعباء الحياة الأبية وتضعف عن الإقدام في ساحة
الفداء ، وتخشى عواقب المخاطرة والجرأة فقد حكم عليها
بالذلة والموت والهوان .

اسمعوا إلى قرآنكم ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من
ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ﴾ لقد
ماتوا في الديار التي عجزوا عن الدفاع عنها ، وعلى الأمم
النائحة أن تتحمل أوزار ماتقاسي وتعاني . والذي يقبل
الذلة يغري الآخرين بالبغي والعدوان على ذي أنفة أو
حمية .

ألا فاتقوا الله رحمكم الله ، واستمسكوا بعزة أهل
الإيمان ، فله العزة ، ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين
لا يعلمون .

وَلْيَعْلَمْ أَنَّ المؤتمرات الدولية ، والقوات العسكرية غير
قادرة على كبح جماح العنف ، وإيقاف توليد الإرهاب ،
وإنابات التطرف . ولكن : الحل كل الحل ، في إعطاء
الحقوق ، ونشر العدل ، وحفظ الكرامة الإنسانية . وسلوك
مسالك الإنصاف والتسامح ، وإذا كان ذلك كذلك ،
فكيف يمكن الإقناع والاقتناع بجدوى مشروعات الصلح
وضمن استمرارها إذا كانت الموازين بهذا التقلب ،
والمصطلحات بهذا التلاعب ؟!

أيها الناس !

سكوت الشعوب إلى أمد ، وصمت المظلوم إلى حين .
وما يجري في الساحة لم يبق داراً ولا جداراً ، ولم يدع
لأصحاب النوايا الحسنة مقالاً ، استوى الراضون
والرافضون . إن عناقيد الحقد والغضب التي انصبت على
الديار أثارت تساؤلات واستفهامات : هل الناس قد قبلوا
أكثر مما ينبغي ، وهل القوم استسلموا لوعود معسولة أكثر
مما يجب ، وهل تنازلوا أكثر مما يلزم ، وهل استمروا
التضليل والمخادعات أكثر مما يسوغ ؟!

عناقيد الحقد والغضب رفعت عن المظلوم العتب
لينجلي الغبار ، وتنقشع السحب الظلماء عن رجال
يقاومون الضلال بجلد ، ويرفعون المظالم بمجاهدة ،
لا يستوحشون جواً للتخذيل ، ولا يتخاذلون لضربة الحق ،
فهم لا يزالون يؤدون ما عليهم لربهم ودينهم وأمتهم إلى أن
تنقشع الغمة ، ويحفظ الحق المشروع ، ويخرج الإسلام
من محتته ناصع الصفحة ، بل لعله أن يستأنف زحفة
الظهور ليضم إلى قومه قوماً ، وإلى رجاله رجالاً ، وإلى
أرضه أوطاناً . إنهم رجال يتأبون على الهزائم النازلة ،
ويتوكلون على الله في دفعها ومدافعتها حتى تضمحل
وتتلاشى ، إن في حكمهم الماثورة ، وآدابهم المسطورة :